المغزل . والريف . ونفسي

[إلى الشاعر الثائه صاحب « أرواح شاردة » الصديق العزيز محمود طه]

للأستاذ راشد رستم

شردتُ من الحضر إلى الريف — وليس العجب أن يشرد المرء من الحضر إلى الريف — وإلا فأين معنى الشرود ، وأين موطن الشرود ، بل رأين الروح الشّرود ...

أما أنت يا صاحبي ، فقد شردت من الريف إلى الحضر ! ذلك إذا عددنا مصر ، بنيلها العظيم ، وزرعها النضير ، وإنسانها الكريم ، ريفاً وأي ريف ، ثم حسبنا بلاد الغرب بمياهها المدنية ، ومدنها الفنية ، ورهطها النشيط ، حضراً وأي حضر ...

فهل أنا موفق هنا معك ، أم أني شرود كذلك في هذا الخيال وهذا التشبيه ؟ على أنه إذا كانت الأولى فاني منتصر ، وإن كانت الثانية فلست أنت المنتصر ...

* * *

ولكن خبرني ، ما بالي أثير عليك غبار هذا الجدل وأنا في سكون البكور من صباح منير ، وسط ريف هادىء بديع ! لماذا هذا الجدل وأنا في جو نقي نظيف ، حيث البساطة والسهولة والوضوح ! في هذا الصباح البدري الذي لا تصيح فيه الديكة إلا لكي تدعو النيام إلى القيام ، والذي تحمل فيه الطيور النطاطة تحيات النهار — وهذا أول النور وآخر الظلام !

هذا صباح الريف ، سكون ولكن حياة . وها هي الطبيعة ، ناعسة تتمطى ولا تقوم . وأنا صاح قائم أذكر قول الشريف الرضي ، رضيّ النفس ، شارد الروح ، وهو يقول :

وأكتم الصبح عنها وهي غافلة حتى تكلم عصفور على علم

* * *

وهأنذا أتحدث عن هذا الصباح الغريب ، فقد كان صباحاً ساكناً ، ثم ثار ، ثم سكن . أثبت الحقيقة كما جاءت فيه — والحقيقة أصل لكل خيال — فقد جلست الساعة بعد هذا الشروق البهي ، و « مغزلي » في يدي ، وأنا في هذا المكان من الصعيد البعيد ...

وهذه هي الأرض تغمرها مياه النهر الكريم ، تحفها سلسلة هذه الجبال الراسيات ، يضم القوم بينهما هذا الوادي الأخضر السهل الفسيح الممتد

* * *

وإذ أنا في هذه الحال ، هادىء النفس هادىء البال ، إذا بالبلدة الناعسة ، وهي تطرح عنها أطراف الليل ، تستيقظ على صوت مزمار وطبل — جماعة يحجون إلى دير بالجبل بعيد — حتى إذا عادوا من نذرهم وقد مرُّوا علينا بالطريق ، صبحونا مبدين مهكرين ، ودخلوا القرية وافدين ؛ حيّونا بأصوات البشير ، وتلقيناهم بأحسن تكريم ، وتبادلنا وإياهم في ساعة هذا النهار المنعش الصبوح ، صفاء قلوب في صفاء قلوب

* * *

ثم أداروا علينا من أنغامهم موسيقى ذات دوىّ بعيد وحنو قريب ، فأخذت القوم نشوة اليقظة بعد فترة الرقاد الطويل ، وتولتهم هزة الفرح ، فراحوا وزاروا الحي يزمرون ويطبلون ، كما أنشأوا (يتخاطبون) ، يحملون عصيهم في الفضاء ، تدور بهم وهم بها دائرون ، يبتعدون ثم يلتفون ، وفي خفة يقفزون ، ليس فيهم طالب ولا مطلوب ، ولا غالب ولا مغلوب ، إذ هم في لهو يمرحون ، وأهل القرية من حولهم معجبون مبتهجون

* * *

حتى إذا تحول الطرب ودارت الرقص أنغامه ، دارت في الساحة من الرجال أربابه ، يتفكهون وإن كانوا به يتباهون ! غير أن الخلخال رنانه ، والخال المحجب سلطانه ، وقد دق

لا تتعدى أضرارها إلى هدم أصول الحياة وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الإنسانية ذات الحرمات والقيم التي لها اعتبارها ، كما هي الحال الآن في نتائج هذه الحرب ... فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الإنسان كقتال الآلهة لا كحسام الأطفال

وقتال الآلهة — لو كان هناك آلهة إلا الله — تخريب لأصول الحياة وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل إليها والإطباق عليها لأنهم فرضاً خالقوها وواضعو أسرارها ...

فلنوحد الإنسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة في التخريب ، كما وحدنا الأرباب !

ولنعلُ بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من كل ذات ظفر وناب !

عبد المنعم محمد مهدوف

الطفل لبنات الحى دقاته ، فنزلن الساحة يخطرن والقلب وقتها دقاته ، وأثارت بنات الحى فى الحى الرقص موجاته ، فارتفعت فى ميزان (الحرارة) شاراته ، وازدحم الميدان واشتدت حماساته ؛ فقد دارت بنات الحى فى الميدان للرقص دوراته ، وحى الوطيس واشرأبت من الجمع هاماته ؛ هؤلاء هن للدلال والوقف والعطف سيداته ، وهؤلاء هن للف والليل والدوران ربّاته :

صان الإله رشيقةً مياسةً أربت على الغزلان فى الجولان

* * *

ثم خلت الساحة من حسان راقصاته ، إلا التى هى من بنات الحى أبين بأناته . هيفاء هيفاء ، تخطر فوق الثرى وكأنها تصعد فى الجو إلى ثريّاته ، خفةً ورشاقة وسناء ؛ بينما تراها هنا إذ تراها هناك . وهى إن حنّت على المشيب أقبلت عليه ترعاه ، فتجعله من فرط الرضا شباباً ... فإذا تجنّت على الشباب تحولت إليه تسبيه هياماً فتجعله هباء أو سراباً ...

وكأنى بها حمامة الصبح وهذا هو الصبح قد لاح ، فهل تبعد يا أليف الهوى وهذا هو الإلف قد بان وسبحان الفتاح ؟ تعال . تعال . خذ الخصر بيمناك ، ودر بالساق مع الساق ، ولا تقل أين المساق . إن للحياة مداها ، وللروح فى حب الرضا قرباها ، ومناها ، ونجواها ...

* * *

وانظر الآن ! هذه هى الخيل تجرى فى أعنتها وفق هواها ، تدب دبيب السعد والخيلاء والخير معقود على نواصيها . وهؤلاء فرسانها لا يستطيعون لها كبحاً ، فتفزع تدخل بهم الساحة مسرعة ، كأنها تأبى إلا أن تأخذ نصيبها فى موكب هذا الصباح ، ولكنها ترتد سريعة جامحة ، كأنها من نيران أمامها خائفة ، وما هى إلا ذات الخلخال ، لا تزال فى الساحة قائمة ، لم تترك مكانها ، فكيف إذن للخيالة أن تستبيح الميدان ؟

لما أن رأتهم متدفقين ، وقفت وقفتها تكشف فيها لهم عن القسى والسهام ، فأدركوا ما قد يصيبهم من كبوات وغرام ، وخافوا على أنفسهم وخيلهم من الأذى والضرام ، وهكذا ارتدوا خائفين وهم هم السادة الشجعان ، من الخيالة والخيل والفرسان .

حتى إذا هدأ الروع ، واستقر الفؤاد ، عادوا بعدئذ إلى الساحة مطمئنين ، بل كراماً نازلين ، يدورون ويدورون ، يلعبون « ويفرّسون »

والخيل تزع مزعاً فى أعنتها
كالطير ينجو من الشؤبوب ذى البرد
وللخيل صيحات وللفرسان صيحات

وهكذا بين جمال وجلال وكر وفر ، وصهيل وتهليل ، تسود البطولة أجواءنا ، وتملك النعومة أرواحنا ...

* * *

حتى إذا بلغت نشوة الفرح حدها ، وضيافة الصبح سمتها ، وأذن مؤذن الركب بالرحيل ، وأخذ القوم يعودون فى هدوء آسفين ، ونحن من ورائهم كذلك آسفون ؛ وخلا المكان ، وانفض السكان ، وإذا بى قد شردت من حالى دون أن أبرح مكانى ، وإذا بى يشتد شانى دون أن أترك شانى ، وإذا بى أرى منزلى بجوارى فألجأ إليه لأجد عنده خلاصى

* * *

وإنى وقد آخذ مقامى من هذا الريف النظيف ، أبدأ كل يوم فيه بما قد هويته صغيراً ، ولا أزال أهواه كبيراً : « غزل » الصوف بهذا المنزل القديم المعروف ؛ إذ أجد للفكر إذا ما شرد ، وللنفس إذا ثارت ، راحة وسكوناً مع دورات هذا المغزل الأنيق الرشيق المتين

وإنك لتراه يتدلى فى الفضاء دائراً دائراً ، معلقاً فى خيط رفيع دائماً ؛ ينساب من بين أنامل ماهرة ، قد تكون كذلك ناعمة ، تجعله خيطاً رفيعاً ناعماً ، تتجلى فيه دقة الصنعة إذا ما جعلته رفيعاً رفيعاً ، متيناً متيناً

تراه محمّلاً مثقلاً ، معلقاً فى ذلك الخيط المتين الرفيع ، كما يتعلق الهائمون الشاردون بالأمل فى خيط منه وحيد رفيع

يدور المغزل فى الفضاء مثقلاً مثقلاً ، كأنه النفس المثقلة بأنواع الهموم ، تتنزلها يد الأقدار ، تلفها عليها فى سكون ودوام ، ثم تدور بها فى طيات هذه الحياة

هذا المغزل الذى بين يدىّ ، هو كهذه النفس التى بين جنبىّ ، حملها كبيرة صغيراً ، ولا أزال أحملها كبيرة كبيراً

هذا المغزل بينما تراه خلياً حيناً ، مثقلاً أحياناً ، يدور فى فضاء الله ، كما تدور فيه هذه النفس ثائراً ، هادئاً صابراً

هذا المغزل مهما كان عتيقاً عريقاً ، فإنه متجدد دائماً ، نظيف دائماً ، رشيق دائماً ...

(مزرعة كوم النصورة)

راشد رشم